كتب دائرة المعارف الإسلامية

١٤

البارود عند المسلمين

بقلم

كولان

Colin & Ayalon & Savory & Yar Moh Khan

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

ابراهيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني

مكتبة المدرسة

البارود عند المسلمين

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة

طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة

الصنائع - مقابل مدخل الإذاعة اللبنانية
هاتف: ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب: ٣١٧٦ - تلكس: LE٢٢٨٦٥
برقياً: كتالبان - بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٨٤

كتب دائرة المعارف الإسلامية
١٤

البارود عند المسلمين

بقلم

كولان

Colin & Ayalon & Savory & Yar Moh Khan

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية
إبراهيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

وهذا هو الكتاب الرابع عشر من « كتب دائرة المعارف الاسلامية » ويتناول موضوعا شائقا طريفا هو « البارود عند المسلمين » ويبدأ بإلمامة عامة عن مفهوم الكلمة، ثم يدرس البارود في المغرب، ثم عند المماليك، ثم البارود في الامبراطورية العثمانية، ثم البارود عند الصفويين، ثم البارود في الهند.

وقد كتب هذا الكتاب عدد من المستشرقين النابهين هم كولان وأيالون وپاري وساڤوري ويار محمد خان، واهمهم كولان.

أما جورج ساڤن كولان فقد ولد سنة ١٨٩٣، وأقام في شمالي افريقية وصرف همه الى دراسة هذه

الربوع من حيث التاريخ والعادات واللغات والصلات.

وآثاره ودراساته هي: اللهجات العربية، وأصل الاسم محمد، ونقود من العهد الإدريسي، والمصطلحات المغربية، وأسماء الصناع والتجار، وعربية غرناطة في القرن الخامس عشر؛ وأصدر بمساعدة ليڤي پروڤنسال حياة المغرب الفكرية، ولغة موريتانيا العربية، وآداب الحسبة لابن عبدالله السقطي، وله أيضا شعراء عرب من المغرب في القرن الرابع عشر، وعربية أراغون، وله بمساعدة رينو شرح تحفة الاحباب في ماهية النبات والأعشاب، ومن مصنفاته الهامة: الأَصل العربي لحركات شعوب البربر الكبرى، ومعجم جيب أسپاني عربي من مطلع القرن السادس عشر. وحقق بمعاونة ليڤي بروڤنسال: البيان المغرب لابن عذارى.

واللجنة اذ تصدر هذا الكتاب تؤمن بأنه خليق

بأن يفيد منه الذين يدرسون الحضارة الاسلامية عامة وتاريخها الحربي خاصة.

والله الموفق

ابراهيم زكي خورشيد
رئيس تحرير النسخة العربية
من دائرة المعارف الاسلامية

البارود عند المسلمين

١- إلمامة عامّة

تطلق كلمة نفط في العربية (نفت في الفارسية) على صفوة قار Bitumen (ويقال أيضاً القير والبابلي) ما بين النهرين، ولونه في الطبيعة أبيض، ويوجد أحياناً أسود، يبيضّ بالتصعيد؛ وهو نافع في ظلام عدسة العين Cataract وسحابة القرنية Leucoma، ومن خصائصه اجتذاب النار عن بعد دون أن يمسها مباشرة.

وإذا خلط بمواد أخرى كالدهن والزيت والكبريت وغيرها، اشتد التهابه ولزوجته وأصبح عنصراً أساسياً من عناصر «النار الإغريقية»، وهي

مزيج سائل يضرم النار في كل شيء، وكان يقذف به على الناس، وعلى آلات الحصار المختلفة التي كانت تصنع من الخشب، وعلى السفن، وقد استخدمه المسلمون في المشرق استخداماً مشهوداً، ضد الصليبيين والمغول. واحتفظ هذا المستحضر الجديد باسم « النفط ». ويتولى متخصص يعرف « بالنفّاط » أو « الزَّرّاق » إطلاق هذه النار الإغريقية على هيئة النفث متوسلا إلى ذلك بأنبوبة خاصة من النحاس هي الـ « نفّاطة » أو « الزَّرّاقة » أو « المكحلة »، وهذه الآلة هي الأصل في قاذفات اللهب اليوم. وكانت، كما يبدو، نوعاً من الزَّرّاقات (المحاقن) الضخمة، أشبه ما تكون بالمضخات التي كان يستعملها رجال المطافىء الأولين في الآستانة. وكان يمكن أيضاً أن تعبأ في قوارير ويرمى بها بمجانيق من أشكال شتى، أو توضع في قراطيس (فشكات) وتشد إلى السهام على طريقة أهل الصين (سهام خِطّائيّة).

واتخذت كلمة نفط معاني جديدة منذ عرف ملح

البارود حوالى سنة ١٢٣٠م. فقد كان الصينيون من زمن سحيق على معرفة بما لملح البارود من خصائص إشعال النار، غير أنهم لم يكونوا يستعملونه إلا في دفع الصواريخ في الألعاب النارية أو في الحرب. ولعل المعرفة بخصائص ملح البارود (وطريقة تنقيته بالغسيل) قد انتقلت من الصين إلى بلاد فارس، إذ الواقع أنه كانت توجد في الفارسية علاوة على الكلمة الإيرانية «شوره» - (شورك في اللغة القديمة) ومعناها الأرض المشبعة بملح البارود أو ملح البارود نفسه - مرادف آخر لها هو «نمك چيني» أي ملح الصين. ونجد في العربية - علاوة على كلمة «شَوْرَج»، وهي كلمة مستعارة من الإيرانية، وعلى الصيغ العامية «ملح الحائط» أي ملح البحر (انظر ما يلي) و«ملح الدباغين» - عبارة «ثلج صيني» و«ثلج الصين»، ونصادف أيضاً: «زهرة حجر أسيوس» (بلدة قديمة في طرواس أو ميسيا)، وهي نوع من ملح البارود البحري، يكون على هيئة طفح

ملحي ناعم يترسب من رشاش ماء البحر على صخور هشة تماثل الحجر الخفاف، وهو شيء يشبه زبد البورق، ويطلق عليه ابن البيطار كلمة بارود، وسنتتبع تاريخه بعد من حيث هو مرادف في لغة المغرب للمصطلحات الثلاثة الأخيرة التي تنطبق على ملح البارود في الأقراباذين.

وكان ملح البارود بادىء الأمر يدخل في تركيب مسحوق الإشعال في الألعاب النارية، وقد احتفظ باسم النفط، ثم أطلق هذا الاسم نفسه بعد ذلك بقليل على بارود المدافع.

وبمقدار ما يصل إليه علمنا اليوم، فإن أول كلمة استعملتها الشعوب المتحدثة بالعربية للدلالة على المسحوق الجديد الذي يدخل ملح البارود في تركيبه كانت هي الكلمة العامة « دواء » أي العقار، وهي في الواقع نفس الكلمة التي استعملها حسن الرّمّاح المتوفى سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) للتعبير عن المخلوط الذي يحشى به المدفع وقدره ١٠ أجزاء من البارود وجزءان

من الفحم النباتي، و ١،٥ جزء من الكبريت، وما زال هذا المصطلح مستعملا في العربية. ويؤدي هذا المصطلح نفس المعنى الذي يؤديه المصطلح « دارو » (انظر ما يلي) في الفارسية. وإن كان من المستحيل علينا أن نقول على وجه اليقين: هل كان ذلك محض توافق بين الكلمتين أو أننا بصدد كلمة مستعارة انتقلت عن طريق الترجمة، وبأي معنى اصطنعت الكلمة الأخيرة؟

وكان المصطلح « نفط »، وهو الاسم الأول للنار الإغريقية الذي أطلق من بعد على المركّب الجديد، هو الاسم الذي غلب في الشرق على الأقل أيام المماليك. وفي الأندلس كان أقدم اسم سجل هو النفط (من عام ٧٢٤هـ = ١٣٢٤م)

وفي مجموعة المفردات (Vocabulista : وهو معجم لاتيني أسباني عربي صنف في بلنسية في القرن الثالث عشر الميلادي) نجد كلمتي Ignis و Ignem excutere مقابلتين لكلمة نفط، ولكن معنى كلمة

نفط لم يحدد أي تحديد يتصف بالدقة. ومهما يكن الأمر فقد ظهر هذا المصطلح في بيروت اسما على الثقاب. وكانت كلمة نفّاطة تعني في تونس الألعاب النارية. وفي كثير من اللهجات العربية العامية كان للألفاظ المشتقة من الأصل نفط (نَفْطا، نَفّاطة) معنى القارورة أو البثرة أو الانتفاخ بين الجلد واللحم مملوء بالماء. وربما كان ذلك صدى لكلمة «قوارير النفط».

وبارود ـ بالألف ـ ليست من العربية الفصحى، ويبدو أنها ظهرت أول ما ظهرت في كتاب الجامع لابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م). فقد ذكر فيه أن البارود هو الاسم الذي يطلقه عامة الناس والأطباء في المغرب على «ثلج الصين» أو ملح البارود، وهو مادة ذات خواص علاجية (انظر ابن البيطار، ترجمة Lecierc جـ، ص ٧١). ويستعمل الرَمّاح هذه الكلمة في نفس المعنى في وصفه لتركيب بارود المدافع. وكذلك لم يكن للبارود عند ابن

الكتبي (٧١٠ هـ = ١٣١٠ م، انظر ما يلي) من معنى إلا ملح البارود.

ويذكر العمري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) في كتابه التعريف طبعة ١٣١٢ هـ، ص ٢٠٨) كلمة البارود مرتين، يتكلم في الأولى منهما عن مادة تدخل في تركيب «قوارير النفط»، وهي قذائف تستخدم في الحروب البحرية، ويتكلم في الأخرى عن «مكاحل البارود»، ويمكن أن يستدل من الكلمة في هذا الموضع على أنها تشير إلى مركب من ملح البارود له قوة دفع (انظر ما يلي، قسم٢).

ومن ثم يصعب علينا أن نعين على وجه الدقة تاريخاً أو بلداً اتخذ فيه حشو المدافع اسم العنصر الأساسي في هذا الحشو. ففي الأندلس وقع التغير في معنى الكلمة في غضون النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، حين أصبح حشو المدافع هو «البارود»، ونترات البوتاسيوم هي «ملح البارود». أما «النفط» (وتجمع على أنفاط) فصارت اسماً

للمدفع، وأصبح « النّفّاط » هـو المدفعـي. (انظـر Suppl.: Dozy، هذه المواد).

وبهذا المفهوم الجديد لحشو المدافع ذاعت كلمة « بارود » في طول البلاد المتكلمة بالعربية وعرضها، ونطقوها عامة براء مشـددة، وفي جـزيـرة العـرب اتخذت اصطلاحات إضافية تحل محل « دواء » (انظر ما سبق). وفي بلاد تونس استعملوا كلمة « كسكسي » وفي بلاد القبائل « كُسكسو آبـركـان » أي الكسكسي الأسود، وكلها أسماء مشتقة (وربما كانت تلطفاً في التعبير) من التشابه بين النوعين، إذ كلاهما يُفتلان ويُحببان. ونجد في ليبيا، إلى جانب « بارود »، كلمة « باروك » التي يمكن إرجاعها إلى الأصل العربي بَرَق بمعنى لمع كالبرق. أو إلى كلمة « بوراق » وهي الاسم اليوناني للنطرون.

وقد استعملت الكلمة في اللغة التركية غالباً بصيغة باروت، وهو نطق تردد في كثير من اللهجات العامية لشعـوب بلاد العـرب الجنـوبيـة المختلفـة: عُمان،

وحضرموت (بل لقد وردت أيضاً صيغة: باروط، Glossaire: Landberg datinois، جـ ١، ص ١٣٠). ومن التركية استعارت الفارسية هذا المصطلح، وكذلك فعلت بعض لغات البلقان، كاليونانية الحديثة والألبانية والصربية والبلغارية؛ وانتقل من الفارسية إلى الكردية والهندوستانية، غير أنه وجد في الهندوستانية كما في الأفغانية نداً له في المصطلح الفارسي «دارو» بمعنى دواء. ويتردد في اللغات الإفريقية: الأمهرية والسواحلية ولغة الهوسا وغيرها مصطلحات تقابل البارود. وأجازت اليونانية الحديثة كلمة موريتيس باعتبارها كلمة علمية ورأت أنها الأصل في كلمة بارود وإن كان هذا الاشتقاق ليس يقينياً على الإطلاق، هذا بالإضافة إلى الكلمة المألوفة الجارية على الألسن: مپاروتي المستعارة من التركية.

ويفرد الخفاجي وهو كاتب مصري توفي عام ١٠٦٩ هـ (١٦٥٩ م) بعد أن عاش زمناً طويلا في

تركية، لكلمة بارود في كتابه « شفاء الغليل » (طبعة القاهرة، عام ١٢٨٢ هـ، ص ٥٥) نبذة طويلة يقول فيها: « بارود، بالدال المهملة، و « باروط » غلط »، وجاء في كتاب « ما لا يسع الطبيب جهله » (وهو كتاب لابن الكُتْبي الطبيب البغدادي صنفه حوالى سنة ١٣١٠ م) « أنه اسم لزهرة أسيوس » (انظر ما سبق فيما استشهد به من ابن البيطار) بالمغرب. وفي عرف أهل العراق يطلقونه على ملح الحائط، وهو طفح يظهر على الجدران العتيقة فيجمعونه وهم يستعملونه في « أعمال النار » [الألعاب النارية] المتصاعدة والمتحركة فيزيدها خفة وسرعة التهاب ». ويتابع الكاتب المصري كلامه فيقول: « وهو لفظ مولد من البُرادة [برادة الحديد] لشبهه بها. وهو الآن اسم لما يركب من ذلك الملح ومن فحم [نباتي] وكبريت، سمي باسم جزئه ». وكان البارود عند العراقيين في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) لا يزال يدل على ملح البارود فحسب. ولكنه كان قد دخل في صناعة الأسهم النارية.

ويعادل هذا أهمية التعليق الذي خصّ به ابن خلف التبريزي في معجمه الفارسي « برهان قاطع » (طبعة طهران، عام ١٣٣٠ هـ = ١٩٥١ م) كلمة بارود، فهو يقول إنه هو « داروىء تُفَنْگ » ومعناها « كحل المكحلة [البندقية] ». وهو الاسم الذي يطلق في السريانية على الـ « شوره » أي « النطرون أو ملح البارود » وهو العنصر الأساسي في البارود.

ولا أدري من أين جاء هذا اللغوي الفارسي بمعلوماته هذه. على أنه من الوقائع المعروفة أن بروكلمان يسجل في معجمه السرياني Syriacum: Brockelmaan Lexikon، الطبعة الثانية، عام ١٩٢٨ م، ص ٩٥) مثالا للبارود « النطرون Natrium) وهو لفظ التقطه من نص كيمائي.

ومن هاتين القرينتين يمكن أن يكون لكلمة « بارود » أصل آرامي، يتفق في تصريفه مع وزن « فَعُول ».

ويسمى البارود في اللغة الأرمنية ورود (بدلا من ورَّوْد براء مشددة) وهي كلمة لا يمكن أن ترتبط ارتباطاً مباشراً ببارود لأسباب صوتية تحكم تصريف الكلمة. ومع ذلك فإن الكلمة الأرمنية لها ما يظهر اشتقاق (شائع؟) له أصل في الأرمنية نفسها وهو «ورّ» بتشديد الراء بمعنى يحترق، وأود بمعنى هواء؛ ترى هل تكون الكلمة الآرامية من أصل أرمني؟ (هذه المعلومات أمدني بها الاستاذ فايدي Feydit، باريس).

ويفترض ده غويه de Goeje اشتقاقاً آخر للبارود تغاضى عنه الناس، قائلا إنه يمكن ان يشتق من البارود في المحل الأول «كحل مهدىء ينفع في التهاب العين» ثم أطلق في نهاية الأمر على كل ذرور للعين (انظر ابن الحشّاء).

وقد بشَّر ابن جَزْلة الطبيب البغدادي المتوفى عام ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) في كتابه «المنهاج» بفائدة «زهرة حجر أسيوس» أو ملح البارود البحري في

تركيب الكحل علاجاً يقوي البصر، ويجلو العين، ويذهب بسحابة القرنية (Leucoma). أما استبدال الألف بالفتحة، فله أمثلة أخرى في الأسماء المغربية (التي تجري على هذا الميزان الصرفي) وجميعها أسماء أدوية، مثل غاسول (وردت من قبل في ابن البيطار) وقاسوخ وهو صمغ النشادر، ويغري المرء بألاّ يمر على هذا الفرض مر الكرام أن لفظ مُكحُلة ـ وهي أداة الكحل ـ كان ولم يزل مستعملا في كثير من البلاد المتكلمة بالعربية مصطلحاً للدلالة على « البندقية ». ويجب ألاّ يغرب عن بالنا أن أول لفظ عربي أطلق على البارود كان لفظ « دواء ». وعند علماء اللغة الإيرانيين يسمى البارود في بعض الأحيان « دواء » أو « كحل البنادق ». وأخيراً، وفي مجال بعيد كل البعد عما نحن فيه، يستعمل أهل الملايو عبارة « دواء البندقية » و « أوپات بديل ». أما في حالة « بارود المدفع » كما في « أنبوبة النار » فالمسألة ابتداءً لا تعدو أن تكون اسماً فيه تلطف في التعبير. ولكلمة دواء العربية مفاهيم أخرى من نفس الأصل.

وهي « سم »، و « نورة » أي مركب مزيل للشعر. (انظر Suppl.: Dozy). وصفوة القول أن أصل الـ « بارود » ما زال غامضاً.

وينصرف أهل الريف في شمالي إفريقية في أيام الأعياد إلى « لعب البارود » ببنادق محشوة بالبارود الكذاب، إما على ظهور الخيل (لعب الخيل أي بالمزاريق على طريقة الأوربيين) حيث يقلد المشتركون في اللعب الحركات الحربية القديمة من الكر والفر، وإما على الأقدام « رقص البنادق ». (وللوقوف على صورة دقيقة لذلك باللغة العامية انظر Recueil de texles: G. Delphin، ص ٢٣٣ و ٢٢٥؛ Textes arabes de Zaer: V. Loubignac، ص ٧٩؛ وبالفرنسية La : L. Mercier chasse et les sports chez les arabes ص ٢٣٤).

واشتق من الـ « بارود » الـ « بارودة » أي البندقية. أما الكلمة المراكشية « بارودية » (سلفات

الحديدوز) التي تستعمل صبغة سوداء فيفسرها لون المسحوق.

[G.S. Colin كولان]

٢ - المغْرِب

كانت آلات الحصار هي أول سلاح ناري ظهر. فقد ذكر ابن خلدون في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أن السلطان يعقوب المريني استخدم في حصاره لمدينة سجلماسة سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٤ م) المجانيق والعرّادات وهِنْدام النفط الذي كان يقذف بحصا الحديد تدفعه من «الخَزْنة» النار التي أشعلها البارود (انظر العبر، طبعة بولاق، سنة ١٣٨٤ هـ، جـ ٤، ص ١٨٨ في أسفلها). وهذه المعلومات الدقيقة هي، لسوء الحظ، مشكوك فيها بالنسبة لهذا الزمن المتقدم. والحق إن ابن خلدِون في وصفه لهذا الحصار نفسه في تأريخه لملوك تلمسان (المصدر المذكور، ص ٨٥) إنما تكلم عن آلات

الحصار فحسب دون أية إشارة إلى هذا الاختراع العجيب، ومن ناحية أخرى نجد أن المصدر الذي استقى منه ابن خلدون وصفه لهذا الحصار كان فيما يظهر هو كتاب «روض القرطاس» ونظيره كتاب «الذخيرة السَّنية» (الطبعة الثانية، فاس، ص ٢٥٥؛ طبعة بن شنب، ص ١٥٨). ولم يذكر هذان الكتابان إلا المجانيق والعرّادات فحسب.

ولم يكن في الإمكان حتى عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) أن يقف أحد على إشارة لشيء يلوح منه أنه سلاح ناري بحق. ذلك أنه لما حاصر إسماعيل ملك غرناطة مدينة وَشْقَة التي تبعد ٦٨ ميلا (١٦٠ كيلومتراً) شمالي غرب غرناطة وكان يحتلها النصارى، استعمل إسماعيل «الآلة العظمى المتخذة بالنفط»، وقد أمطرت هذه الآلة حماة القلعة «بكرات حديد محماة»، وكانت الكرة إذا أطلقت رمت بشآبيب من الشرر ثم تحط وسط المحاصرين محدثة من عظم التخريب ما تحدثه الصاعقة. وقد خلّد

كثير من الشعراء هذه الوقعة (انظر ابن الخطيب: الإحاطة، طبعة القاهرة عام ١٣١٩ هـ، جـ ١، ص ٢٣١؛ الكاتب نفسه: اللمحة البدرية، طبعة القاهرة، عام ١٣٤٧ هـ، ص ٧٢).

وحدث بعد ذلك بتسعة عشر عاماً، في حصار الجزيرة الخضراء، أن أطلق المسلمون المدافعون على النصارى متوسلين بما يسمى الرعود (Trouenos ومعناها لفظاً «رعود») سهاماً غليظة كبيرة وكرات من الحديد. ولكن ما المقصود بالرعود على وجه الدقة؟ هل هي سلاح ناري بالفعل، أو آلات شبيهة بالرّعّادت؟ ولم يحدث إلا في أخريات أيام ملوك بني نصر (من سنة ١٤٨٢ إلى ١٤٩٢ م) أن بدأ يظهر المصطلح «بارود» بمعنى بارود المدافع والمصطلح نفط (وجمعه أنفاط) بمعنى مدفع أي مدفع حصار للقشتاليين ومدفعية حصون للغرناطيين. وفي حصار مُكْلين (عام ١٤٨٦ م) استخدم القشتاليون مدافع تقذف بصخور من نار تحلق في السماء ثم تنقض كتلة

تشتعل ناراً على المدينة فتقتل وتحرق كل من تصيبه. ويجب أن نلاحظ أنه خلال هذه المدة كانت أنفاط بصيغة الجمع تقترن عادة بكلمة « عُدَّة » التي تنطبق تماماً على الآلات القديمة من طراز المجانيق. والواقع أنه في حصار ضاحية البيّازين بغرناطة عام ١٤٨٦، اشتركت الأنفاط والمنجنيق في العمل معاً. وفي مفردات العربية التي يُتحدث بها في غرناطة (Vocabulista، وقد صنفت عام ١٥٠١ م) ترجم پ. دي ألكالا P. de Alcala كلمة Artilleria بكلمة « عُدَّة » لكنه ترجم كلمة Artillero بكلمة « نُفّاط » المشتقة من نَفْط «lombarda»، أما كلمة trabuco فقد اداها بكلمة « منجنيق ». وعرف فوق ذلك نوعاً من المدافع باسم « أُبرُقين » أو « أُبرِقين »، على أنه لم يذكر إلا جعبة السهام والقذائف Arbalest ولم يذكر شيئاً عن الأسلحة النارية المحمولة.

وقد ظهر السلاح الناري بالمغرب في مستهل القرن السادس عشر، فقد أهدى أحد المغاربة أول

« بندقية » إلى السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ = ١٥٠٠ ـ ١٥١٦ م) وذكر له أنها السلاح الذي ظهر في بلاد الإفرنج، وكان يستعمل في جميع بلاد العثمانيين وبلاد المغرب (انظر ابن زنبل: فتح، مخطوط بباريس، سنة ١٨٣٢، ورقة رقم ٢).

ويزودنا ليو أفريقانوس (الحسن بن محمد الوزّان الزياتي) الذي غادر مراكش سنة ١٥١٦ م بصورة لجيش بني وطّاس (انظر هذه المادة) مجهزاً بالمدافع والبنادق يحملها الفرسان. أما بلاد تونس، في نفس هذا العهد، فيقول عنها إن لملكها حرساً من المشاة مؤلفاً من الأتراك المسلحين بالبنادق. ولكن صناعة الأسلحة النارية واستخدامها لم يبلغا شأوهما إلا أيام السعديين بخاصة. فقد نظم سلاطين هذه الدولة جيشهم على النمط التركي، فأنشأوا فرقاً مسلحة بالبنادق من الأتراك والأندلسيين، وأحاطوا أنفسهم ـ إن كثيراً وإن قليلا ـ بالأوروبيين المرتدين عن

دينهم الأصلي « العلوج » الذين استحدثوا لهم أساليب فنية جديدة، هي صب المدافع.

وفي سنة ١٥٧٥ م كان جيش السلطان مولاي محمد مجهزاً بنيف ومئة وخمسين مدفعاً من بينها مدفع ذو تسع مواسير (هو الآن في متحف الجيش بباريس)، وفي عام ١٥٧٨ م كان الجيش المراكشي في معركة وادي المخازن المشهورة مزوداً بأربعة وثلاثين مدفعاً، وثلاثة آلاف من الأندلسيين المشاة حملة البنادق و ١٠٠٠ من الأندلسيين الفرسان المسلحين بالبنادق.

وفي سنة ١٥٩١ م تألفت الحملة التي جردت على السودان من ٢٠٠٠ من المشاة الأندلسيين والمرتدين حملة البنادق. و ٥٠٠ من الفرسان المرتدين مسلحين بالبنادق، ونقلت هذه الحملة معها ستة مدافع هاون وعدداً من المدافع الصغيرة (انظر Hespéris : عام ١٩٢٣، ص ٤٦٧). ويسَّرت هذه الأسلحة النارية هزيمة السودانيين. وكانت الحراب المريشة والأقواس

والسيوف هي كل ما يحملونه من عدة للحرب. ولم تزل سلالات حملة البنادق المراكشيين هؤلاء تعيش في تمبكتو وقد اختلطت دماؤها اختلاطاً شديداً، وجعلوا من أنفسهم طبقة تعرف باسم أرمه، من اللفظ العربي رُماة.

وفي هذه الفترة من الزمن كان «النفض» (كذا) عند المراكشيين هو المدفع، بينما كانت البندقية هي المدفع. ولم يطلقوا كلمة «مدفع» على المدفع بمعناه اليوم، وكلمة مُكحُلة، التي ربما وصلت إليهم من الشرق، على البندقية ذات الزناد الجديدة إلا في القرن السابع عشر الميلادي. والحقيقة التالية ذات دلالة خاصة على التاريخ الذي حدث فيه هذا التغير في المعنى، ذلك أنه في الجزء من كتاب «نفح الطيب» الذي ينقل نصاً غرناطياً عربياً تاريخه سنة ١٥٤٠ م، نجد أن المقَرَّى التلمساني، المتوفى سنة ١٠٤١ هـ = (١٦٣٢ م) الذي كتب هذا النص حقاً في المشرق يستبدل في كثير من المناسبات كلمة

« المدافع » بكلمة « أنفاط » (انظر نفح الطيب، طبعة بولاق، سنة ١٢٧٩ هـ، جـ ٢، ص ١٢٦٥).

وفي عام ١٦٣٠ م صنف أحد المسلمين الذين بقوا في أسبانيا بعد سقوط غرناطة ثم فر إلى تونس رسالة هامة باللغة الأسبانية في المدفعية على أساس من الأساليب الفنية الألمانية، وفي عام ١٦٣٨ ترجم مسلم آخر ممن بقوا في اسبانية، ثم لجأ إلى تونس بعد أن عاش طويلا في المغرب، هذه الرسالة إلى اللغة العربية المتداولة، لتوزيعها على السلطان العثماني « مراد » وعلى غيره من حكام المسلمين. وتوجد لهذه الرسالة ترجمة مختصرة اختصاراً طفيفاً في المكتبة العامة بالرباط (١٣٤٢) وتذكر الرسالة أن لفظ مدفع كان معناه في تونس المدفع المعروف، وكان معناه في مراكش البندقية. وكان الأمر على عكس ذلك إذ كانت كلمة « انفاط » التي تدل على المدفع في مراكش، تدل في تونس على ألعاب النار، وهي التي كانوا يسمونها في مراكش « سماويات ».

وكانت مدافع البرونز التي صبها السعديون في مراكش في مصانعهم بفاس ومراكش وتارودانت (أو بناء على توصياتهم في هولندة) رشيقة بخاصة، وما زال الكثير منها موجوداً في ثغور مراكش، وهي محلاة عادة بعلامة السلطان الحاكم (الطغراء)، وكانت الأسلحة النارية المحمولة تستورد من أوربا، مهربة في العادة.

وتألفت مدفعية العلويين، على الأخص، من قطع استولوا عليها من أعدائهم في البر والبحر، وأخرى استقدمها السفراء الأجانب هدية لهؤلاء السلاطين، وكانوا فيما عدا ذلك يشترونها من الخارج، ثم ينقشون عليها بالعربية. على أن صناعة البنادق انتشرت في مراكش، وبخاصة في الجنوب، كما انتشرت ايضاً في الشمال في تطوان وتارجيست.

ومهما بدا ذلك عجيباً، فإن المجانيق كانت تستعمل جنباً إلى جنب مع المدافع ومدافع الهاون في مراكش، لا في الحصار فحسب بل في الحملات

الحربية في المناطق الجبلية أيضاً.

واللفظ العام الذي يدل على كلمة مدفع بمعناها المعروف هو « المدفع » وذلك في جميع بلاد شمالي إفريقة. أما كلمة « كورة » (وبالفصحى كُرَة) وبالدارجة كور فهي جُلة المدفع، ويسمى الرجل الذي يقوم على المدفع في أي مكان « طوبجي »، ومدفع الهاون « مهراز »، وهو يقذف بالبُمبة « بُنبة »، وهي كلمة لاتينية انتقلت عن التركية. وكان للبنادق المصنوعة محلياً في مراكش والجزائر وتونس أسماء مشتقة من لفظ « مكحلة »، والطرازان الرئيسيان هما « بوشِفر » وهو بندقية تُطلق بالزناد و « بو حبَّة » وهو بندقية تطلق بالكبسول. ويشتقون التسميات العارضة للأسلحة إما من أسماء صانعيها أو من أماكن صنعها، أو حتى من طولها مقاساً بالشبر. وتحتفظ مفردات اللغة المغربية الدارجة في ذاكرتها حتى الآن بأسماء الأسلحة القديمة التي من اصل أوروبي، مثل قابوس أي غدّارة من Arcabus،

ومِشقِط من Muschetto ، وشُكُبيِّطَة من Escopeta ، وقَربيلة من Carabina ، وهلم جرا ؛ ويسمون البندقية التي تُعمر من البورمة في بلاد مراكش « كِلاطة » (من الإسپانية Culata) . ويسمون أنواعا أخرى على عدد ما تحويه الخزنة من طلقات . وفي شرقي تونس وفي ليبيا تسمى البندقية المصنوعة محلياً « بِنْدگة » وتسمى الغدارة « شِشْخان » (عن الفارسية ، أي ذات الأنبوبة المسدسة الأضلاع ، عن التركية) .

وقد رأينا أن « النفط » في غربي المغرب حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي كان يدل على المدفع ، أما المدفع فهو عندهم السلاح الناري المحمول . واحتفظ هذان الاسمان بمعنييهما إلى يومنا هذا (مع رسم النفط بصيغة أخرى هي « نفض ») في اللهجات البربرية لهذا الإقليم نفسه . وهما موجودان ايضاً بهذه الصفة في اللهجة العامية في موريتانيا . ومع ذلك ، فإن البندقية عند بربر الطوارق هي « البوروض » . وتنعكس الآية في اللغة الأمهرية ،

فلفظ « نفط » معناه بندقية و « المدف » معناه المدفع.

أما عن مسميات البندقية في مراكش فانظر (joly: L'industrie à Tétouan في Archives Marocaines، الجزء الحادي عشر، ص ٣٦١؛ Delhomme: Les armes dans le Sous في Archives Berbères جـ ٢، accidental ص ١٢٣).

واقتضى الأخذ بالأسلحة النارية المحمولة واستخدامها في الجهاد، وضرورة تخصيص وقت للتمرن على أصول الرماية، إنشاء جمعيات للرماة ذات صبغة دينية.

على أن استعمال مثل هذه الأسلحة في الصيد ألجأ الفقهاء من أول الأمر إلى أن يدرسوا حكم ما يقتل من الحيوان بهذه الطريقة، أحلال هو أم حرام؟ (كتب أحكام البندق).

[كولان G.S. Colin]

٣ - المماليك

وبقدر ما تيسر لنا من المعرفة حتى الآن في هذا الموضوع، فإن المعلومات الموثوق بها عن استعمال الأسلحة النارية في سلطنة المماليك تبدأ من منتصف الستينات للقرن الرابع عشر الميلادي، أي أنها كانت متأخرة نحو أربعين سنة عن المعلومات المناظرة لها التي تيسرت لنا عن استعمال هذه الأسلحة في أوروبا. وفي المصادر إشارات أقدم من ذلك عن هذه الأسلحة، ولكن صحتها تتطلب مزيداً من الإثبات. ولما كان ابن فضل الله العمري يتكلم عن الأسلحة النارية في كتابه «التعريف في المصطلح الشريف» (طبعة القاهرة، سنة ١٣١٢ هـ، ص ٢٠٨؛ جـ ٢، ص ١٧ - ٢٢) الذي ألفه سنة ٢٤١ هـ (١٣٤١ م) فإن ذلك خليق بأن يدل على أن المماليك بدأوا يستعملون الأسلحة النارية قبل منتصف الستينات بعدة عقود من السنين.

ولا بأس من ذكر بضع كلمات عن المصطلحات

التي كانت تعرف بها هذه الأسلحة، كانت هذه المصطلحات هي: مكاحل (مفرد مُكحُلة) النفط، ومدافع (مفرد مِدْفع) النفط، أو نفط فحسب (وجمعها نفوط). ثم كان أن اختصر المصطلحان الأولان فأصبحا مكاحل ومدافع. ولا يستفاد من المصادر المملوكية هل كانت مكحلة ومدفع يدلان على طرازين متميزين من الأسلحة النارية أم لا. وتصادفنا في السنين الأولى التي تلت اتخاذ هذه الأسلحة المصطلحات: صواعق النفط، وصواريخ النفط، وآلات النفط، وهندام النفط، وهي تفيد أيضاً معنى الأسلحة النارية. غير أن هذه الأسماء الأخيرة كلها لم تلبث أن اندثرت (ومن شاء أدلة مفصلة على أن المصطلحات المذكورة آنفاً كانت تدل على الأسلحة النارية ولا تدل على النفط أو النار الإغريقية التي كانت تسمى بالعربية أيضاً « نفط » فلينظر D. Ayalon : Gunpowder and Firearms in The Mameluk Kingdom ص ٩ ـ ٤٢).

ولم يرد المصطلح بارود في مصادر المماليك التاريخية اسماً على المخلوط بأسره الخاص ببارود المدافع إلا في أندر النادر طوال الجانب الأكبر من عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤ ـ ٩٢٢ هـ = ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م)، وإنما تردد ذكره في العقود الأخيرة من سني حكمهم. ومع ذلك فقد ظل المصطلح «نفط» سائداً حتى لفظت سلطنة المماليك انفاسها الأخيرة. على أن غلبة البارود على النفط نهائياً قد وقعت فيما بعد الغزو العثماني، وقد ازداد استعمال المدفعية أيام سلطنة المماليك زيادة مطردة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ومع ذلك فإن الزمن استطال بهم قبل أن يستطيعوا التخلي تماماً عن آلة الحصار التي بلوها طويلا وهي المنجنيق. وقد ظل المدفع والمكحلة عدة سنين يستخدمونهما أدوات لمساعدة المنجنيق فحسب يؤديان بهما المهام الصغرى. وتمدنا مصادر المماليك بمعلومات وفيرة عن ضرر لا يذكر كان يحدثه هذان السلاحان في الأهداف التي

يصوبان إليها. ومع ذلك فقد كانت الغلبة للمدفعية في نهاية الأمر. وقلَّ ذكر اشتراك المجانيق في القتال شيئاً فشيئاً أثناء النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، رغم مجاهدتها للبقاء حتى نهاية عصر المماليك.

وقد استخدم المماليك مدفعيتهم في الحصار فقط (هجوماً ودفاعاً) وأبوا في إصرار أن يستخدموها في ميدان القتال حتى نهاية النهاية لدولتهم. ولا يمكن بحال أن يعزى إلى الصدفة اشتراك المدفعية المتزايد في أعمال الحصار في دولة المماليك، من جهة، وغيابها عن ميادين القتال كلية من جهة أخرى. والسبب في سهولة اصطناعها في أعمال الحصار يتجلى في أنها لم تحدث أية تغييرات شاملة في النظم التقليدية للحصار، وبخاصة في تاريخها الأول، فقد سبق المنجنيق المدفع، وأدى بإحكام تام نفس المهام التي أداها المدفع، وظل عمراً طويلا متفوقاً على الأسلحة النارية. أما في الميادين المكشوفة، فقد كانت الظروف مختلفة جداً:

فالمدفعية بِدعة في الحرب في كل النواحي لم يسبقها سلاح مثلها، ذلك أنها كانت خليقة بأن تحدث تغييراً في فن الحركات الحربية وفي أساليب الحرب، مما يحمل سلطة المماليك الحربية على أن تصطنع نهجاً يخالف أشد المخالفة طبيعتها نفسها.

وقد أفسح السلطان الغوري المجال بعض الإفساح لاستعمال الأسلحة النارية، وكان هذا التنازل منه على أهميته في الظاهر، قليل الشأن في الواقع. ذلك أنه اشترط في جميع ما نزل عنه في هذا الشأن شرطاً واحداً، هو ألا يتعرض البناء القائم للمجتمع الحربي للمماليك لأي تغيير ذي شأن. وكانت نتيجة هذا الموقف منه القضاء المبرم على مشروع إعادة تنظيم الجيش المملوكي وإعداده للامتحان الحاسم، إذ لم يكن ثمة أمل في استخدام الأسلحة النارية استخداماً فعالاً، ما لم يتغير شكل المجتمع المملوكي هو وجميع المفاهيم التي يقوم من أجلها. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الغوري بعد إذ أمر بالتوسع في

استخدام الأسلحة النارية، كان قد استقر عزمه على إحياء أساليب الحرب التقليدية.

وكان لخطته ثلاث نواح رئيسية: (١) أن يزيد من سبك المدافع زيادة كبيرة. (٢) أن يجدد تمارين الفروسية والتدريب الحربي التقليدي. (٣) أن ينشىء وحدة من حملة البنادق (الأرقبوصات). والذي يهمنا في بحثنا هذا هما الناحيتان الأولى والثالثة.

سبك المدافع:

شرع الغوري بعد توليه عرش السلطنة ببضع سنين في سبك المدافع بمعدل ونطاق لم يسبقه إليهما أحد قط في تاريخ السلطنة، فأقام على مقربة من ميدانه الجديد الذي أنشأه مسبكاً للمدافع أخرج مقادير كبيرة من المدافع في فترات قصيرة. ومن المؤسف أن مصدرنا، وهو ابن إياس، لم يجر على أن يبين كم هو عدد مدافع كل فترة. ولكنه فعل ذلك في أربع حالات: أحصى في واحدة ١٥ مدفعاً، وفي الثانية ٧٥ مدفعاً،

وفي الثالثة ٧٤ مدفعاً، وفي الرابعة ٧٥ مدفعاً.

وهذا الإنتاج الضخم لم يقصد به على الإطلاق استخدامه ضد العثمانيين في الميدان المكشوف. بل وجه معظمه إلى الثغور المصرية على البحرين المتوسط والأحمر لتعزيز تحصينات هذه الثغور أو لإقامتها فوق السفن الحربية للانتفاع بها.

ويجب ألا نخرج من إرسال مثل هذه الأعداد من المدافع إلى السواحل وإلى التحصينات الساحلية بأن القواعد الاستراتيجية في الداخل لم تكن تزود بمقادير كبيرة من المدافع. ذلك أن الذي حدث في داخل البلاد سواء في أيام الغوري أو في أيام الأجيال السالفة، أن عدداً كبيراً من مجموع إنتاج المدافع كان قد خصص لقصبة البلاد بما في ذلك قلعتها. ويتبين هذا كله أولا من أن معظم معلوماتنا عن هذا السلاح جاءت من القاهرة، ويؤيده أيضاً ذلك الحشد الضخم من مدافع المماليك الذي كان في موقعة الريدانية (يناير عام ١٥١٧ م). أما عن الشام فإن معلوماتنا

عن حظ المدفعية في هذا الجزء من دولة المماليك قليلة جداً، سواء في ذلك ما يتعلق بالساحل أو بداخل البلاد. ونحن نعلم من أخبار ابن طولون بوجود مقادير كبيرة من الأسلحة النارية في دمشق. ويقودنا هذا إلى أن نذهب إلى تواريخ أخرى عن الشام أكثر تفصيلا مما بين أيدينا خليقة بأن تكشف أن المدفعية قد لعبت في هذا القطر دوراً أكبر مما نتبينه من المصادر المتيسرة لنا.

إنشاء وحدة من حملة البنادق (الأرقبوصات):

تشير مصادر المماليك إلى الأرقبوصات (أو مدافع اليد، أو الأسلحة النارية المحمولة) بالمصطلح البندق الرصاص، والتعريف المتأخر للمدفع المحمول، وهو «البندقية»، إنما جاء دون شك من بندق، على حين أن «الرصاصة» بمعنى طلقات أو قراطيس قد اشتقت من الرصاص، أو أن يكون لقيام مدينة ڤينيسيا (وهي البندقية، باللغة العربية) بالإشراف

على حركة نقل واسعة للسلاح في الفترة التي نحن بصددها، دخل في اتخاذ اسم البندقية مصطلحاً. ويبدو أن النّقْلة من «بندق الرصاص» إلى البندقية لم تستغرق وقتاً طويلا، فقد ذكر ابن إياس نفسه البندقية ثلاث مرات، في حين كثر تردد ذكر بندقية وبندقيات وبنادق في كتب ابن زُنْبل وابن طولون المعاصرين له واللذين ماتا بعده بعشرات قليلة من السنين. وهما يذكران أيضاً «بندق» في كتبهما، أما «بندق الرصاص» فقد انقطع ذكره من آثارهما.

وكان نفور المماليك من استعمال الأسلحة النارية المحمولة أشد بكثير من إبائهم استعمال المدافع في الميادين المكشوفة، فالمدافع ميدان متخصصين فنيين، ولم يكن عددهم كبيراً في القوات المسلحة، ولا يقتضي سوى تغيير ضئيل في بناء الجيش. أما الأرقبوصة (البندقية) فهي، من الناحية الأخرى، سلاح فردي وجماعي، يؤثر اصطناعها تأثيراً بعيد المدى على أعداد كبيرة من الجند. ويترتب عليه

إحداث تغييرات بعيدة في تنظيم الحرب وأساليبها. وإن تزويد الجندي ببندقية، معناه تجريده من قوسه، أما الذي كان يزيد من نفور المملوك فهو حرمانه من حصانه، فذلك يهوي به إلى درك رجل المشاة المهين، ويكرهه إما على أن يمشي على قدميه أو أن يحمل على عربة يجرها ثور.

ولذلك لم يكن ثمة مناص من الاعتماد على غير المماليك إذا أريد التوسع في استخدام البنادق، أي على العناصر الدون في الجيش. وهذا ما اضطر إليه سلاطين المماليك من بداية الأمر، وكانت عُقباه قيام الصدام بين مصالح السلطنة ومصالح السلطة العسكرية. ولما ازداد الخطر من الخارج استطاع السلاطين أن يوسعوا ـ هوناً ما ـ القيود الضيقة التي فرضتها مقاومة المماليك لاستخدام الأرقبوصات، وأن يضموا إلى حملة الأرقبوصات أفراداً من وحدات أخرى أرفع قدراً في الجيش من سابقيهم، ولكن هذا النجاح لم يمتد أكثر من ذلك. ومن ثم لم

يكن بد من أن يحل القضاء بالأرقبوصة.

ولليوم نفسه الذي أدخل في المماليك الأرقبوصة مغزى. فقد ورد ذكرها لأول مرة في المصادر في تاريخ متأخر يرجع إلى عام ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م؛ أيام السلطان قايتباي)، أي قبل أن تزول دولة المماليك بسبع وعشرين سنة فحسب، ومتأخراً عن التاريخ الذي استحدثت فيه في أوروبا بخمس وعشرين ومئة سنة (بدأ استعمالها في أوروبا حوالى سنة ١٣٦٥ م). وأدخلت المدفعية من ناحية أخرى في سلطنة المماليك متأخرة بنحو أربعين سنة عنها في أوروبا. ولم يكن المدى الطويل الذي انقضى بين استخدام البندقية وبين استخدام المدفعية أمراً عارضاً بأية حال.

وكان العبيد السود وأولاد الناس (انظر هذه المادة) قوام الوحدات التي تستخدم أسلحة النار، ولم يخدم أفراد هاتين الطبقتين، على ما يبدو، في وحدة

واحدة معاً، إذ تارة تكون الأغلبية للعبيد، وأخرى تكون لأولاد الناس.

وسعى السلطان الناصر أبو السعادات محمد، (٩٠١ ـ ٩٠٤ هـ = ١٤٩٥ ـ ١٤٩٨ م) ابن قايتباي، الذي ارتقى العرش في سن الرابعة عشرة، سعياً حثيثاً لإنشاء وحدة قوية من حملة الأرقبوصات يجعل قوامها من العبيد، وأراد أن ينعم عليهم برتب اجتماعية أرفع، وتدخل أمراء المماليك، وأجبروه على حل الفرقة والتعهد بألا يعيد تشكيلها ثانية أبداً.

وبعد نحو اثنتي عشرة سنة من مقتل الناصر أبي السعادات في سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) عمد السلطان قانصوه الغوري ـ الذي كان يحظى بنفوذ أوفر بما لا يقاس مما كان للملك الغلام المذكور آنفاً، وكانت أيامه في حاجة إلى الأرقبوصات أشد إلحاحاً ـ إلى بذل محاولة أخرى في حذر أكبر، لإنشاء وحدة من حملة الأرقبوصات، وكانت هذه الوحدة أكثر توفيقاً

من وحدة سلفه إلا أن بقاءها كان مزعزعاً جداً، ومنزلتها منحطة، وآثارها لا تذكر.

وأطلق على هذه الوحدة اسم «الطبقة الخامسة» لأن اعطيات أفرادها لم تكن تصرف مع باقي الجيش في الأيام الأربعة لصرف الأعطيات، حوالى منتصف الشهر، بل كانوا يصرفونها على حدة في اليوم الخامس لدفع الأعطيات عند نهاية الشهر. وسموها أيضاً «العسكر الملفَّق» لأنها كانت مؤلفة من أشابات من عناصر شتى هي في اعتبار المماليك من أصول وضيعة. فكان فيها مع أولاد الناس، تركمانيون وعجم وصناع من مهن شتى كالحذّائين والحاكة والجزارين، ولم ينخرط المماليك من أفراد البيت الحاكم فيها إلا بعد أن قام السلطان الغوري بحملته الكبيرة على البرتغاليين. ومما له مغزى أن هذه الفرقة رغم ما كان بين أفرادها من تباين شديد، فإنه لم يسمع قط أن العبيد السود قد دخلوا في عداد «الطبقة الخامسة».

وكان المركز الاجتماعي العسكري لهذه الفرقة في الدرك الأسفل، وأعطيات أفرادها أقل بكثير من أعطيات المماليك أصحاب السلطة، ومع ذلك فقد تعرض السلطان لضغط شديد جداً لحمله على إلغائها بحجة أنها تنعم بحظوة فوق ما للوحدات الأخرى، وأن إنشاءها هو السبب الجوهري في إفقار بيت المال. ورضخ السلطان آخر الأمر، وحل الفرقة في المحرم من عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م). غير أن هذا الحل كان على الورق فقط، ذلك أن الطبقة الخامسة عاشت من بعد لأن الحاجة إليها كانت ماسة في جبهة حيوية جداً.

وكان لاستخدام العثمانيين للأسلحة النارية على الوجه الصحيح وعلى نطاق هائل، وإهمال المماليك وسائر الحكام المسلمين ذوي الشأن، أثر حاسم في مصير آسية الغربية ومصر. إذ لم يمض إلا سنتان ونصف السنة فحسب (أغسطس سنة ١٥١٤ ـ يناير سنة ١٥١٧) حتى هزم العثمانيون الصفويين، وأطاحوا

بسلطنة المماليك، وضموا إلى ملكهم أراضي العالم الإسلامي القديم، التي ظلوا يحتازونها حتى اللحظة الأخيرة التي تفككت فيها إمبراطوريتهم في القرن العشرين، والتي كانت أوسع رقعة من كل فتوحاتهم مجتمعة في أوروبا على امتداد تاريخهم، ولولا تفوقهم الساحق في الأسلحة النارية ما تم لهم قط هذا الاتساع الشاسع السريع.

٤ - الإمبراطورية العثمانية

لا نجد فيما بين أيدينا دليلاً يثبت على وجه الدقة متى استخدم العثمانيون بارود المدافع والأسلحة النارية لأول مرة. على أن فقرة وردت في سجل تركي عن ألبانيا سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣١ م) تجيز لنا أن نستخلص منها أن المدفع أدخل في هذه البلاد على الأقل في عهد محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١ م) وربما كان ذلك في فترة متقدمة عن ذلك (إينالجق: في بلّتن، جـ ٢١، سنة ١٩٥٧، ص ٥٠٩)، وتذكر

مصادر أخرى أن العثمانيين استعملوا المدافع في الحصار في السنوات ١٤٤٠ و ١٤٤٦ و ١٤٤٨ وفي سنة ١٤٥٠ م. وفضلاً عما تقدم، فإن المعروف جيداً أن محمداً الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) كان لديه مدافع كثيرة عندما ضرب الحصار على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م. وقد ظهرت مدافع الميدان عند العثمانيين، فيما يبدو، قبيل معركة وارنه (١٤٤٤ م) أي أثناء الحروب المجرية التي شنها العثمانيون في عهد مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١)، وأول إشارة صريحة إلى أن العثمانيين استعملوا مدافع من هذا الطراز في اشتباك واسع النطاق، ترجع إلى معركة قوصوه الثانية سنة ١٨٤٨ م. غير أن ظهور مدافع ميدان عثمانية عظيمة الأثر لم يتيسر إلا في وقت متأخر عن ذلك كثيراً، حين ارتقت صناعة المدافع. واستخدم العثمانيون الأرقبوصات أيضاً حوالى ١٤٤٠ - ١٤٤٣ م، في الحروب المجرية أيام مراد الثاني، وتوسعوا في استعمالها في عهد محمد الثاني، ومع

ذلك فقد كانت النَّقْلة إلى استخدام هذا السلاح الجديد على نطاق أعم، بطيئة تدريجية كما حدث بالنسبة للإنكشارية، إذ قدر له أن يظل أمدا طويلا غير مكتمل. وبعد النكسات التي نزلت بالعثمانيين في الحرب القيليقية مع مماليك مصر والشام ما بين سنتي ١٤٨٥ - ١٤٩١ م، زاد بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) في عدد الإنكشارية وزودهم هم وطوائف أخرى من جيشه بأسلحة أكثر كفاية وأشد نكاية وفتكاً في الهجوم، من الأسلحة التي تيسرت من قبل. ولم يضن السلطان أيضاً بالمال لينشىء قوة مدفعية أسرع تحركاً وأقدر جنداً. ولم تناسب الأرقبوصات احتياجات الفرسان وقدراتهم، بسبب بطء حشوها، وصعوبة تناولها، ومن ثم لم تحظ إلا بقبول قليل لدى أصحاب التيمارات العثمانيين وسپاهيي الباب العالي، أي الفرسان الإقطاعيين وفرسان البيت السلطاني. وكان لا بد لاستخدام الأسلحة النارية، بصفة عامة، أن ينتظر ظهور أنواع

جديدة من البنادق أسهل تناولاً، أي الطراز الأقدم للبندقية والغدارة. وكان على العثمانيين، مع هذا، أن يقوموا بإنشاء قوة راكبة من حملة الأرقبوصات في مصر بعيد الفتح العثماني عام ١٥١٧ م.

ويمكن أن نذكر على النحو الآتي الجنود الذين كان واجبهم الأول منصرفاً إلى البارود والأسلحة النارية واستخدامها العملي وقتَ الحرب:

(١) الـ «جبه جيلر» أي صناع السلاح الذين وكل إليهم أمر أسلحة الإنكشارية وذخائرهم وهي: الأقواس والسهام والسيوف وغيرها. كما كانوا مسؤولين عن المدافع اليدوية (توفنك) والبارود والفتيل، ورصاص الطلقات (قورشون) وما إلى ذلك. ويعمل رجال هذه الفرقة في استانبول وفي القلاع الإقليمية في الإمبراطورية. وتفيد تقارير البنادقة التي كتبت ما بين سنتي ١٥٧١ و ١٥٩٠ م أن الإنكشارية جميعاً تقريباً كانوا يستخدمون الأرقبوصة. وكانت أنبوبة الطراز العثماني منها أطول

مما هو مألوف لدى المسيحيين، ورصاصها أكبر، مثل أرقبوصات البربر.

(ب) الـ «طوبجي لـر» أي المدفعيون، وهم مسؤولون عن الإنتاج الفعلي للمدافع، وصيانتها واستخدامها في الحرب. والمركز الرئيسي لهؤلاء الجنود المتخصصين يقوم في دار الصنعة «طوپ خانه» بإستانبول، وكانوا يعملون أيضاً في القلاع المختلفة للإمبراطورية، وفي مسابك المدافع الإقليمية، وفي مستودعات الذخيرة. وكان العثمانيون فيما مضى يحملون إلى ميدان القتال مؤونتهم من المعادن بدلا من المدافع الكاملة الصنع الثقيلة الوزن المعوّقة، ويصبون مدافعهم وفقا لاحتياجاتهم أثناء سير القتال. وبقي هذا الإجراء متبعاً أيام محمد الثاني، ثم بطل شيئاً فشيئاً لأنه صار لا لزوم له بعد التقدم الذي طرأ بعد ذلك في أصول الصناعة ووسائل النقل.

وأظهر التحليل الكيميائي لمدفع من مدافع العثمانيين صنع عام ٨٦٨ هـ (١٤٦٤ م) أنه مركب

من برونز ممتاز، وقد وضع في الاعتبار ما قد يظهر من عيوب في عملية الصهر التي كانت متبعة في ذلك الزمن. ويصف مدفعي أسباني يدعى كولادو Collado المدفع العثماني في رسالة له تاريخها ١٥٩٢ م، أنه سيّىء التناسب، ولكنه من معدن جيد، ولأوليا چلبي وصف للطرائق التي كانت مستعملة في سبك المدافع في طوپخانه بإستانبول.

(حـ) طوپ عربه جيلري: اي الفرقة المسؤولة عن نقل المدافع والذخيرة. وكانت العربات التي تجرها الخيل والثيران والبغال تحمل المدافع الكبيرة والصغيرة، ومع ذلك فقد كثر استخدام الجمال في حمل الأنواع الأخف من المدافع، وبخاصة في الأراضي الوعرة. ويشار في مواضع متفرقة من المصادر إلى مدافع على عجل، وأن ثمة فقرات ربما تشير إلى العربة نفسها أو إلى نوع من عربات للمدافع تسير على عجل. زد على ذلك أن العثمانيين احتفظوا على الدانوب بأسطول صغير، كان له دور خطير في

نقل مدافع الحصار والميدان والمؤن التي كانوا يحتاجون إليها في حملاتهم الكبيرة على المجر.

(د) الـ «خمبره جيلر»: وهم صناع القنابل المنوط بهم إنتاج واستعمال القنابل اليدوية وقنابل المدافع والألغام المحمولة والنار الصناعية وغيرها.

(هـ) الـ «لغمجيلر»: وهم الذين يبثون الألغام، وبمساعدة قوات كبيرة من العمال تحت تصرفهم يعدون الخنادق والسدود ومصاطب المدافع والألغام تحت الأرض مما لا غنى عنه في الحصار وكان العثمانيون، حتى قبل وفاة محمد الثاني سنة ١٤٨١، قد اصطنعوا النماذج الهامة من السلاح، والأساليب الفنية التي تقتضي استعمال البارود، ومدافع الحصار والميدان ومدافع الهاون والقنابل والأرقبوصات والألغام الصناعية. وكان لأهل الصرب والبوسنة ضلع كبير في انتقال هذه الأسلحة الجديدة إلى العثمانيين، ذلك أنه قد جند من هذين القطرين مدفعيون وحملة أرقبوصات ظلوا على

مسيحيتهم، وقد علمنا أنهم دخلوا في خدمة محمد الثاني (إنالجق: فاتح دوري، جـ ١، ص ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، وانظر أيضاً بلتن، جـ ٢١، سنة ١٩٥٧، ص ٥١١). وجاء معلمون (أسطوات) أيضاً من بلاد أبعد شقة مثل جورگ من أعمال نورنبرغ. وصار الاعتماد على اخصائيين من أصول أوروبية منذ ذلك الحين من المقومات الثابتة الضرورية لكل الفرق العثمانية المعنية بالبارود والأسلحة النارية، وكان معظم هؤلاء من الألمان والإيطاليين في بادىء الأمر، ثم ازدادوا عدداً في الأزمنة الأخيرة بقدوم عناصر من الفرنسيين والإنكليز والهولنديين.

وفي المصادر الغربية للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين معلومات متفرقة، ذات طبيعة فنية، عن أنماط المدافع التي كانت مستعملة عند العثمانيين. وقد وصفت هذه المعلومات المدافع وفقاً لنظام التصنيف الشائع في أوروبا وقتئذ (وفي الإمبراطورية العثمانية أيضاً) أي باعتبار وزن القذائف

وحجمها. وفي خبر إيطالي عن الحملة على « ديو » عام ١٥٣٨ م، بيان بالمدافع التي كانت في حوزة العثمانيين في هذه المناسبة.

ولم يُدرس حتى الآن فن تعبئة وتحركات المدافع الذي اصطنعه العثمانيون في حروبهم دراسة تفصيلية، على أن التشكيل العادي الذي كانوا يتبعونه عند الدخول في معركة هو « الطابور »، وهو ربط عربات المدافع بعضها إلى بعض وصف المدافع بينها، وهو بدعة ربما كان المجريون هم الأصل فيها. ومثل هذا الترتيب في المعركة (« طبقاً لمألوف الروم » أي الإمبراطورية العثمانية: روم دستوري بيله) كان معروفاً في الهند الإسلامية وفي بلاد فارس. ويصف الأسباني كولادو Collado في رسالته الطريقة التي ينتهجها العثمانيون في دك جدران حصن ما فيقول: تطلق المدافع المتوسطة، أي مدافع الكولڤرين Culverins القادرة على التوغل وإطلاق النيران على طول خطوط متعارضة ورأسية حتى تقوض البناء

الحجري من أساسه وتصدعه، ثم تأتي مدافع البازيليكات التي ترمي بقذائف أثقل وأشد تدميراً وأفظع فتكاً بظاهر الأهداف. فتطلق جميعها دفعة واحدة فتأتي على البنيان المتهاوي وتدكه. وكان للعثمانيين بطبيعة الحال اسماؤهم التي أطلقوها على مدافعهم، وعلى ماله صلة بها من عدّة الحرب فعلاوة على عبارات ذات طابع شعري خالص (مثل « إژدر دهان » و « مار تن » أي « التنّيني الفم » و الثعباني الجسم » ـ انظر نعيما: جـ ١، ص ١٤٨)، وأسماء سميت بها مدافع بعينها (مثل « الكوچيان » أي المدفع الذي استولوا عليه من كاتسيانر Katzianer، القائد الإمبراطوري الذي هزمه العثمانيون في عام ١٥٣٧ م قرب أوسك Eszék على الدانوب؛ انظر سلانيكي: ص ٣١)، نجد أيضا في الأخبار والوثائق العثمانية ـ من حين إلى حين ـ أسماء لها معان اصطلاحية دقيقة. ومن أكثر طُرز المدافع ذكراً في هذه المصادر.

(١) « **البجالوشقه** » أو « البدالوشقه » وهو مدفع حصار كبير (وربما كان هو المدفع البازيليسك) وكانت المدافع من هذا النوع تطلق مقذوفات زنة كل منها ١٦ أقة.

(٢) الـ « **بال يمز** » وربما كان اسمه مشتقاً من الألمانية (Kissling): « Faule Metze ».

(٣) الـ « **قولومبورنه** » (انظر الكلمة الإيطالية Colubrina) أي المدفع الكولثريني.

(٤) « **الشاقالوز** »: (انظر الكلمة المجرية Szakallaz)، والظاهر أنه نوع من المدافع الخفيفة يطلق قذائف صغيرة من الحجر أو المعدن.

(٥) الـ « **شايقه** »: (انظر الكلمة المجرية Sajka) اسم يطلق على نوع من الزوارق، كما يطلق أيضاً على المدافع التي تركب على هذه الزوارق.

(٦) « **الضربزن** » أو « الضربوزن »: وهو مدفع يصب من أحجام مختلفة: الصغير زنة طلقته

٣٠٠ درهم؛ والوسط زنة طلقته أقة واحدة، والكبير زنة طلقته ٣ أقات، ويذكر أيضاً مدفع يسمى « ضربزن شايقه بزرگ » زنة طلقته ٣٦ أقة.

والظاهر أن العثمانيين استخدموا في حروبهم البحرية بصفة عامة جميع أنواع المدافع التي استخدموها في حروبهم البرية. فمدافع القولونبورنه والضربزن والشايقه كانت مما استخدمه العثمانيون في أساطيلهم.

وتذكر المصادر في كثير من الأحوال آلات للحرب غير المدافع يكون الأساس فيها استخدام البارود، مثل:

(١) الـ « هوايي ».

(٢) الـ « خمبرة » أو « القُمبرة »، أي القنابل.

(٣) « الخمبره سي »، أي القنابل اليدوية.

(٤) « اللغم » وهي ألغام متفجرة من طرز

وحجوم مختلفة. وتوجد إشارات متعدد إلى الألغام في البيانات العثمانية عن حرب إقريطش ما بين سنتي ١٦٤٥ - ١٦٦٩.

وسحب العثمانيون من الأراضي التي كانت تحت سيطرتهم ما لا غنى لهم عنه من خامات مواد الحرب كالحديد، والرصاص، والنحاس، وما أشبه. زد على ذلك أنهم في كثير من الأحيان قد اتخذوا من المناجم التي تستخرج منها هذه الخامات مراكز لصناعة الذخيرة. كالقنابل مثلا. وكانت هناك علاوة على ذلك مناجم تغل ملح البارود والكبريت اللازمين لإنتاج البارود في استنابول وولايات الإمبراطورية. وكانت مواد الحرب ترد على العثمانيين من اوروبا أيضاً. والواقع أن المؤن التي حصلوا عليها من المسيحيين كانت لها في بعض الأوقات أهمية كبرى بالنسبة لجيوش السلطان، مثلما حدث في الحروب الطويلة ضد الفرس (١٥٧٨ - ١٥٩٠) وضد النمسا (١٥٩٣ - ١٦٠٦)، ففي الحروب الأولى اقتضى

الأمر إنشاء عدة حصون وإقامة حاميات والمحافظة عليها في الأقاليم الجبلية الفسيحة القائمة إلى الجنوب من القوقاز، وتطورت الثانية إلى قتال مرير يقوم على سلسلة من الحصارات، وتطلب ذلك كله استهلاك عدد ضخم من المدافع والذخيرة. وباع الإنكليز للعثمانيين في تلك الأيام شحنات من الصفيح (الضروري لصنع مدافع البرونز) والرصاص والأجراس المكسرة والتماثيل (من الكنائس التي تخربت في انكلترة أثناء عصر الإصلاح الديني) والحديد والصلب والنحاس والأرقبوصات والبنادق وصفائح السيوف والحجر والخفاف وملح البارود والبارود (Cal. State Papers, Spanish، السنوات ١٥٦٨ - ١٥٧٩، رقم ٦٠٩، والسنوات ١٥٨٠ - ١٥٨٦، رقم ٢٦٥؛ Cal. State Papers, Venetian، السنوات ١٦٠٣ - ١٦٠٧، رقم ٤٧٠، ٤٩٤ والسنوات: ١٦٠٧ - ١٦١٠، رقم ٨٦٠؛ Braudel: ص ٤٧٩: الصفيح ومعدن الأجراس

والرصاص ؛ Charrière : جـ ٤ ، ص ٩٠٧ ، تعليق ١ « تماثيـــــــــل مكسرة » ؛ Sir Thomas Sherely Discours: ، ص ٧ : « ولم يكن لدى الإنكشارية ذرة من بارود صالح إلا ما استولوا عليه من المسيحيين المغلوبين على أمرهم أو ما ابتاعوه من خارج إنكلترة ، ص ٩ ـ ١٠ : « ويدير الإنكليز ثلاثة محال علنية للسلاح والذخيرة في الآستانة ؛ ويباع البارود بما بين ٢٣ و ٢٤ تشيكينو لكل مئـة .... وتباع البندقية الواحدة بخمسة أو ستة تشيكينو ، والتشيكينو عملة ذهبية للبنادقة قيمتها عند العثمانيين تساوي من عملة « السلطان الذهبية » واحداً . ولم يلبث الهولنديون ان دخلوا في هذه التجارة ، وبيَّن أن هذا كان لصالح العثمانيين ، وشاهد ذلك حرب إقريطش (١٦٤٥ ـ ١٦٠٩) . وتؤكد المصادر الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين مبلغ الفضل الذي يدين به العثمانيون لتجارة الذخائر ، واعتمادهم العظيم على الأساليب الفنية الأوروبية في استعمال الأسلحة النارية

والبارود، وللعدد الكبير من الخبراء المسيحي الأصل الذين انخرطوا في سلك جيوشهم، مهندسين ومدفعيين: خبراء من أصل إيطالي وفرنسي وألماني وهولندي.

وشهدت أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين تغييرات مشهودة في الحرب. وفرضت هذه التغييرات على العثمانيين حاجة ملحة تقتضيهم أن يصطنعوا هذه المبتكرات التي استجدت لدى الأوروبيين في ممارسة الحرب، أو أن يواجهوها بطريقة فعالة، وهي عملية توفيق كانت في وقت من الأوقات بطيئة وعسيرة.

وكتب أحد مسلمي البوسنة، بعد وقعة كرزتس Keresztes بقليل، ينعى على العثمانيين أن المسيحيين رجحت كفتهم رجحاناً مبيناً على جيوش السلطان بسببْ استخدامهم انماطاً جديدة من البنادق والمدافع كان العثمانيون بعدُ غافلين عنها. على أن ظهور مصطلحات لم تكن مألوفة حتى ذلك الوقت في أخبار

العثمانيين ووثائقهم ـ أو قل زيادة شيوع هذه المصطلحات في الاستعمال ـ خليق بأن يكشف لنا أن العثمانيين هضموا إلى حد كبير آخر المبتكرات والأساليب الفنية التي حذقها الأوروبيون في ذلك الوقت. ولم يبلغ هذا التحول التدريجي غايته إلا أيام الوزراء من آل كوپريلي، ويصف كتّاب من ذوي الحكم السليم مثل شايتر Scheither ومونتكوكوللي Montecuccoli ومارسيجلي Marsigli في إسهاب كبير الأسلحة التي كان يستعملها العثمانيون ويمتدحونها في كثير من الأحوال منوهين مثلا بتفوق مدافع الهاون عندهم. على أن مونتكوكوللي: يلاحظ أن المدفعية العثمانية رغم أثرها المشهود إذا أحسن استخدامها كانت تستهلك مقادير كبيرة من الذخيرة، كما كان يعسر استخدامها ونقلها، أما فيما يتعلق بحركتها وكفايتها العملية فإن المسيحيين كانت لهم في ذلك ميزة لا شك فيها على أعدائهم.

وعجز العثمانيون آخر الأمر عن مسايرة التطورات

التي حدثت في أوروبا، فلم تتقدم الأساليب التي اتبعوها في الأسلحة النارية عموماً، معظم أيام القرن الثامن عشر، إلا قليلا عما كانت عليه الأساليب الفنية الشائعة بينهم في عهد الوزراء الأولين من آل كوپريلتي أن العثمانيين استنكفوا من قبول نصيحة طيبة تسدى إليهم، فأصروا على أسلوبهم العتيق في توجيه حصارهم لبلغراد سنة ١٧٣٩. صحيح أن جهوداً بذلت في سبيل الإصلاح، بذلها أناس من أمثال خمبره جي أحمد پاشا (وهو كونت دي بونيڤال، والبارون ده توت Baron de Tott ولكن جهودهم لم تصب إلا نجاحاً محدوداً، ومع هذا فقد شهد عهد سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) اتخاذ تدابير جذرية قصد بها صبغ القوات المسلحة للدولة العثمانية بالصبغة الحديثة على النمط الغربي. وأخذت الأسلحة النارية العثمانية إذا نظرنا إليها نظرة شاملة تفقد آنئذ تلك السمات التي أضفت عليها بعدُ طابعاً متميزاً، وأصبح تطورها من بعد

مقترناً بالتقدم الفني والتحسينات التي تحدث في أوروبا. وحسبنا هنا أن نشير إلى أن الإصلاحات التي تمت في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، قد انتهت بأن خرجت من بين صفوف الجيش العثماني فرقة ذات كفاية من المدفعية جيدة التجهيز قادرة على أن تثبت أنها تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع أندادها من الفرق الأوروبية.

٥ - الصّفويّون

يندرج موضوع النظر في استخدام الأسلحة النارية في بلاد فارس أيام الصفويين تحت عنوانين: المدفعية (اسم جنس = توپ)، والبنادق. ويستخدم المشاة والفرسان البنادق، وتشمل الأرقبوصات والبنادق القصيرة والقرابينات. وأطلق على الجميع بلا تمييز الاسم «تُفنگ».

دخلت المدفعية بلاد فارس في قول الرواية المأثورة للكتاب الأوروبيين، في عهد الشاه عباس

الأول، على يد إنكليزيين من المرتزقة، هما سير أنطوني شيرلي Sir Antony Sherely، وأخوه سير روبرت شيرلي Sir Robert Sherely اللذان وصلا إلى قزوين في ديسمبر عام ١٥٩٨. وكان من بين جماعة سير أنطوني المكونة من ٢٦ شخصاً سَبَّاك مدافع واحد على الأقل». ويذكر أبل پينسون Abel Pinçon، وكيل سير أنطوني أنه لم يكن لدى الفرس في ذلك الوقت أية مدفعية على الإطلاق. ولكن ترجمانه أنجيلو Angelo يؤكد أن الشاه عباساً «كان لديه مدافع، إذ استولى على بعضها من التتار. وعلاوة على ذلك فإنه لم يكن ينقصه صناع معلّمون يقومون بصنع مدافع جديدة، فقد انقلب هؤلاء على الأتراك وولوا وجوههم شطر ملك بلاد فارس ليكونوا في خدمته». ويزعم پيرتشاس Purchas الذي كتب سنة ١٦٢٤ أن هذا التقدم قد تم بإرشاد من الأخوين شيرلي: «إذ تعلم الفارسي الظافر فنون الحرب الشيرليانية وأصبح ذلك الذي لم يكن من قبل يعلم فائدة المدفع، يمتلك ٥٠٠ مدفع من النحاس».

ورغم هذا، فهناك شواهد وافرة في المصادر الأوروبية والفارسية جميعاً تدل على أن استخدام المدافع كان مألوفاً عند الفرس قبل زمن عباس الأول بوقت طويل. ويقول السفير البندقي دالساندري d'Allessandri، الذي دخل فارس عام ١٥٧١ أن الأمير العثماني بايزيد التجأ إلى الشاه طهماسپ سنة ٩٦٦ هـ (١٥٥٦ م) وقد جلب معه ثلاثين قطعة من المدافع. ويقرر هربرت Herbert: «أن الفرس تعلموا المدافع على يد البرتغاليين المغلوبين على أمرهم». ويقول فيگويروا Figueroa إن المدفعية الفارسية كان يديرها أوروبيون «وبخاصة البرتغاليون» ونحن نعلم أن البرتغاليين أمدوا طهماسپ سنة ٩٥٥ هـ (١٥٤٨ م) بعشرة آلاف رجل، وعشرين مدفعاً، في الوقت الذي قام فيه السلطان العثماني سليمان بغزوته الثانية على بلاد فارس (٩٥٥ هـ = ١٥٤٨ م). ونجد في التاريخ الإخباري المعاصر لذلك «أحسن التواريخ» دليلا مباشراً على

أن الفرس كانوا يستخدمون المدافع حتى في تاريخ أقدم من ذلك. فقد كان في جيش الصفويين الذي حاصر دامغان سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ - ١٥٢٩) أستاذ [أي معلم في صنعته] شيخي المدفعي «طوپچي». وفي معركة مدبرة دارت رحاها عقب ذلك في السنة نفسها ضد الأزابكة قرب «مشهد»، صفّ طهماسپ أمام جيشه العربات التي تحمل الـ «ضربزان» (والراجح أنه كان نوعاً من المدافع الخفيفة، انظر المصطلح المملوكي «ضربزانة») والـ «توپ فرنگي»، ومع ذلك لم يستطع المدفعيون أو حملة البنادق (تويچيان وتفنگچيان) ان يستخدموا مدافعهم لأن الأزابكة لم يواجهوهم من الأمام. وفي سنة ٦٤٥ هـ (١٥٣٨) دمرت قوات الصفويين المحاصرة أبراج قلعة بيقرد في شيروان بنيران مدافعهم. ونسمع في سنة ٩٤٦ هـ (١٥٣٩) للمرة الأولى عن «تويچي باشي» (قائد عام المدفعية) مشتركاً في قتال ضد أمير اقباد أمير آستارا

المتمرد، ومن يومها كثر استخدام الصفويين للمدفعية في الحصار، مثال ذلك ما فعلوه في گلستان ودربند سنة ٩٥٤ هـ (١٥٤٧ - ١٥٤٨؛ انظر أحسن التواريخ، ص ٣٢١ - ٣٢٢). وفي حصار كيش القريبة من شكّى (سنة ٩٥٨ هـ ١٥٥١ - ١٥٥٢) استعمل الصفويون مدافع إفرنجية (توپ فرنگي)، علاوة على نوع من المدافع يقال له «بادليج» ومدافع الهاون (قَزَقان) التي يرد ذكرها للمرة الأولى، فدمروا أبراج الحصن بعد ضربها بالقنابل عشرين يوماً.

وواضح من ثم أن القول بأن الأخوين شيرلي أدخلا المدفعية في بلاد فارس هو زعم لا يقوم مطلقاً على أساس. وحقيقة القول ان المدفعية كانت مستعملة بانتظام في تاريخ سابق على سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ - ١٥٢٩)، أي في غضون سنوات قليلة من اعتلاء طهماسپ العرش، وبعد خمس عشرة سنة من هزيمة الصفويين في چالدران (انظر هذه المادة)،

وهي هزيمة كان لمدفعية الجيش العثماني فيها ضلع كبير. ومع ذلك فإن من الواجب أن نؤكد أن الصفويين، حتى قبل چالدران، كانوا على معرفة باستخدام المدفعية، وأن افتقارهم من ثم إلى المدافع في چالدران إنما يعزى إلى سياسة مقصودة أريد بها عدم التوسع في استخدام الأسلحة النارية في الجيش الفارسي، ذلك أن الفرس كانوا يمقتون الأسلحة النارية بفطرتهم، ويرون في استخدامها عملا ينطوي على فقدان الرجولة والجبن. ويمقتون المدفعية بنوع أخص لأنها تعوق المناورات السريعة لفرسانهم. والغريب في أمر الصفويين هؤلاء أنهم، رغم الشواهد الكثيرة التي أوردناها عن استعمالهم المدفعية في الحصار، لم يبذلوا فيما يظهر مجهوداً يذكر في سبيل مباراة العثمانيين في استخدام المدافع في الميدان. ففي وقعة مشهد، سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ ـ ١٥٢٩ م؛ انظر ما سلف)، وهي المناسبة الوحيدة التي سجلت فيها المصادر بالذات استخدام طهماسپ المدفعية في

الميدان، كان جمود المدفعية عن الحركة هو الذي جعلها عديمة الأثر. ولم نعد نسمع بعد ذلك شيئاً عن مدفعية الميدان حتى زمن عباس الأول، وحتى في زمن عباس الأول كان عمل المدفعية مقصوراً في معظمه على الحصار.

والظاهر أن الصفويين في استعمالهم المدفعية، كما في كثير غيرها، كانوا يتأثرون خطى أسلافهم الأق قويونلي، فقبل قيام الصفويين بزمن طويل كان الأق قويونلي من حكام ديار بكر وآذربيجان، قد سعوا في تجهيز جيوشهم بالمدفعية، فأرسل البنادقة إلى اوزون حسن (المتوفى سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨ م) «مئة من رجال المدفعية المحنكين الأكفاء، فسيرهم من فورهم إلى بلاد فارس، إذ كانت الجيوش الفارسية تعاني الأمرين من نقص المدافع لديها، في الوقت الذي كانت فيه الجيوش التركية في آسية ـ من ناحية أخرى ـ مجهزة أحسن تجهيز بهذا السلاح، وكانوا يستطيعون أن يُلحقوا أضراراً فادحة في أي هجوم

لهم به ». وعندما ضربت قوة من الصفويين قوامها ١٠,٠٠٠ رجل بقيادة محمد بگ استاجلو الحصار على حصن « كيفا » في ديار بكر حوالى سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧) استخدموا : « مدفع هاون من البرونز، طول ماسورته أربعة أشبار، جلبوه من مِرْدِن (ماردين). وكان مسبوكاً فيها أيام السلطان يعقوب الأق قويونلي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ = ١٤٩٠ م وبأمره، وكان لدى كستاگيالو (محمد بگ إستاجلو) مدفع هاون آخر أكبر من الأول، صبه له شاب أرمني من قطعة واحدة على الطريقة التركية، وكانت قاعدته نصف مجموع طوله، وعياره عند الفوهة خمسة أشبار ». وفي نفس هذا الوقت بالتقريب، (والراجح ان ذلك كان سنة ٩١٢ هـ = ١٥٠٦ - ١٥٠٧) أنفذ إسماعيل قوة قوامها ١٠,٠٠ رجل بقياد بيرام بگ (قره مانلى) لمحاصرة « وان »، وكان بيرام بگ « يمتلك مدفعين متوسطي الحجم كانا في معسكره، وبدأ يضرب القلعة، ولم يلحق بها ضرراً، إذ كانت

جدرانها منيعة كل المناعة، ورجال المدفعية أقل دربة ممن أن ينالوا منها منالا » غير أنهم أفلحوا بعد حصار دام ثلاثة أشهر في إصابة مورد الماء فيها فسقطت القلعة بعد ذلك تحت رحمتهم. ويقال إن إسماعيل غنم أربعة مدافع من الأزابكة في انتصاره العظيم عليهم عند مَرْو سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م؛ جميل قزانلو). ومن ثم يبدو لنا من الشواهد التي بين أيدينا، أن الصفويين استخدموا المدافع في العقد الأول من سني حكم إسماعيل الأول، ومع ذلك فإن عدد المدافع التي تيسرت لهم كان قليلا، وكان رجال مدفعيتهم بعدُ أغماراً. وقد نسب إلى سير أنطوني شيرلي الفضل في تشكيل فرقة من حملة البنادق أنشأها الشاه عباس الأول. ويقول السائح پيترو ديلاّ ڤالّه Pietro della Valle في خطاب له مؤرخ في ٢٢ أبريل سنة ١٦١٩، إن الشاه عباسا الأول أنشأ هذه الفرقة من حملة البنادق « منذ بضع سنين » عملا بمشورة سير أنطوني في رومة يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٩٩، أنه كان في

استطاعة الشاه عباس الأول أن يجهز بالخيل مئة ألف جندي مسلحين بالقسيّ والسهام والسيوف العراض، وذلك علاوة على الخمسين ألف جندي من حملة الأرقبوصات الذين كانوا تحت يده: «وكان الشاه في وقت من الأوقات لا يستخدم حملة الأرقبوصات، غير أنهم أصبحوا بعد موضع اغتباطه». وغادرت رُفقة سير أنطوني إصفهانَ حوالى أول مايو سنة ١٥٩٩، ومن المستبعد فيما يبدو أن يكون في الإمكان تشكيل فرقة قوامها خمسون ألف مقاتل في غضون الخمسة الأشهر التي قضاها سير أنطوني في القصبة الفارسية. ولم يدَّع أحد من رُفقة سير أنطوني العديدين، الذين خلفوا وصفاً لرحلته، أن سير أنطوني كان مسؤولاً عن تشكيل هذه الفرقة، ويذكر سير أنطوني نفسه في معرض وصفه لرحلته إلى بلاد الفرس (مشيراً إلى النصر الذي أحرزه عباس الأول على الأزابكة بخراسان في التاسع من المحرم عام ١٠٠٧ هـ = ١٢ من أغسطس ١٥٩٨) أن «الشاه

أخذ معه إلى ميدان القتال ثلاثين ألف رجل، منهم اثنا عشر ألف رجل يحملون البنادق Harquebusiers وهي ذات ماسورة أطول بنصف قدم من بنادقنا، وقد صنعت في غير إحكام ولكنهم كانوا يستعملونها استعمالا فيه جودة وتمكن».

وبصرف النظر عما ورد في شهادة سير أنطوني عن وجود قوة كبيرة ذات كفاية في الجيش من حملة البنادق، قبل حضوره إلى بلاد فارس، فإن ثمة دليلا قاطعاً في المصادر الأوروبية والفارسية على أن الجنود الفرس كانوا مجهزين ببنادق برعوا في استعمالها قبل أيام عباس الأول، ويقرر «مانوارينگ» Manwaring، أحد مرافقي سير أنطوني صراحة أن الفرس كانوا بالفعل: «على خبرة عظيمة بمدافعهم وبنادقهم. صحيح أن بعض الناس قد كتبوا أخيراً قائلين بأن الفرس لم يكونوا يستخدمون الأسلحة النارية قبل مجيئنا، إلا أن الأمر يقتضيني ان أثني الثناء الجم عليهم، إذا لم أر في حياتي قط ماسورة

بندقية كالتي رأيتها هناك، وكان للملك قريبا كل القرب من بلاطه في اصفهان ما ينوف على مائتي رجل يشتغلون في المدافع والقسي والسهام والسيوف والأهداف، ولا عمل لهم سوى ذلك » (Denison، ص ٢٢٢). بل حتى قبل ذلك (حوالى سنة ١٥٧١) نجد الوصف القيم الذي كتبه السّاندري أن « سلاحهم السيف والرمح والأرقبوصة التي يستطيعون جميعاً استعمالها. وهو أيضاً سلاح أرقى، وسقيه أجود من غيره في أية دولة أخرى. وطول ماسورة الأرقبوصة ستة أشبار غالباً وزنة طلقتها أقل قليلا من ثلاث أوقيات، ويستعملونها بسهولة بحيث لا تعوقهم لا في سحب أقواسهم ولا في استعمال سيوفهم، ويبقى السيف معلقاً في السرج مع أقواسهم حتى تدعو إليه الحاجة. وتُحمل الأرقبوصة على الظهر، وهكذا لا يعوق سلاح سلاحاً ». ويقرر هربرت Herbert أن الفرس كانوا يستعملون البنادق القصيرة « منذ أعان البرتغاليون الملك طهماسپ ببعض

الجنود المساعدين المسيحيين في حربه ضد الأتراك (الراجح أن ذلك وقع سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨) حتى أصبحوا بعدُ (عام ١٦٢٧) رماة مهرة». وفي التاريخ الفارسي الإخباري المعاصر (أحسن التواريخ) شاهد مباشر على أن البنادق (تفنگ) كانت مستعملة في الجيش الفارسي حتى قبل وفاة إسماعيل الأول: ففي عام ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ - ١٥٢١) ردت فصيلة من الحامية الصفوية في هراة جنود عُبيد خان أوزبك على أعقابهم، بالسهام والبنادق (تير وتفنگ؛)، وهذه أول إشارة إلى البنادق في هذا التاريخ الإخباري، ثم كثر ذكرها بعد ذلك. وفي سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ - ١٥٢٤) وهي السنة التي مات فيها الشاه إسماعيل، وارتقى شاه طهماسب العرش، كان في حامية الجيش الصفوي في هراة فريق من المشاة المسلحين بالبنادق (بياده كان تفنك أنداز)، وأشير إلى عمليتين حربيتين موفقتين ضد الأوزبك، استخدمت فيهما البنادق. وحدث سنة ٩٣٤ هـ (١٥٢٧ - ١٥٢٨)،

في حصار الأزابكة لهراة الذي دام أربعة أشهر أن لقي باري بك، أمير أمراء الأزابكة، مصرعه برصاصة أطلقها عليه أحد المدافعين من بندقية (أحسن التواريخ، ص ٢٠٦). وفي سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ - ١٥٢٩ م) قاد طهماسپ بنفسه جيشاً إلى خراسان ضد الأزابكة، وألقى الحصار على دامغان، وكان ضمن قواته جماعة من تفنكچية روملو (أحسن التواريخ، ص ٢١٢). وبعد ذلك بأشهر قلائل حاصر الأزابكة مشهد، وكان حملة البنادق (تُفنگچيان) جزءاً من الحامية الصفوية. وبينما يقدم كتاب «أحسن التواريخ»، على هذا النحو أدلة إيجابية على استخدام البنادق في الجيش الفارسي في تاريخ متقدم يرجع الى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ - ١٥٢١) فإن هناك دليلا قوياً على أنها كانت في واقع الأمر مستعملة حتى قبل وقعة چالدران. ووردت إشارة عن المدافع في وصف حصار القوات الصفوية لحصن كيفا، وهذه الإشارة لا تدل في سياق

الكلام إلا على « البنادق ». وقد أُخبرنا أيضاً بأن المدافعين كانوا يملكون ثلاثاً أو أربع بنادق من طراز « أزمي »، أي من طراز عجمي، أي فارسي، ولهذا الطراز من البنادق ماسورة صغيرة يُربط « على نصابها جهاز في حجم الأرقبوصة الجيدة » وكان هذا الطراز بعيد المدى.

ومن ثم يتضح أن الزعم بأن الأخوين بشيرلي كانا أول من فكر في إنشاء فرقة من حملة البنادق لا يمكن أن يكون صحيحاً، إذا كان له سند من التاريخ على الإطلاق، إلا بمعنى أن الشاه عباسا الأول كان هو أول من أنشأ فرقة نظامية من حملة البنادق، أصبحت جزءاً من الجيش العامل، يصرف عليها من الإيرادات « الخاصة »، وذلك مقابل الوحدات الموجودة منذ عهد إسماعيل الأول وطهماسپ التي كان مثلها مثل سائر وحدات الجيش الفارسي وقتذاك، جندت فيما يرجح على أساس قبلي، وكان ينفق عليها من « ديوان ممالك ».

ومع ذلك فمما لا شك فيه أنه كان لنصيحة الأخوين شيرلي فائدة جليلة للشاه عباس الأول، الذي كان يقدر سير روبرت شيرلي تقديراً عظيماً، حتى إنه عين روبرت بعد سفره «القائد العام ضد الأتراك». ولم يكتف الشاه عباس بفرقة حملة البنادق (تفنگچيان) التي بلغت عدتها ١٢,٠٠٠ رجل استقر العزم على أن يكونوا مشاة، ثم زودوا شيئاً فشيئاً بالخيل، بل أنشأ الشاه عباس ايضاً فرقتين أخريين لتكونا جزءاً من الجيش العامل، وهما المدفعية (توپچيان)، وعدتها ١٢,٠٠٠ رجل (Chardin: جـ ٥، ص ٣١٢ ـ ٣١٣)، والعبيد (قولتر، غلامان خاصه شريفه)، وهي كتيبة من الفرسان، مجندين من بلاد الكرج وبلاد الچركس، ومسلحين بالبنادق فيما سلحوا به، ويتراوح عددهم بين ١٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ رجل. وكان الجيش الصفوي أقوى ما يكون في عهد عباس الأول، ثم نقص عدده أيام خلفه «صفى» المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٤٢) ثم

ازداد نقصاناً أيام عباس الثاني المتوفى عام ١٠٣٧ هـ (١٦٦٦)، الذي اتخذ خطوة تخرج عن المعقول بإلغائه سلاح المدفعية، إذ لما مات توپچي باشي حسين قُلى خان سنة ١٦٥٥، لم يعين خلفاً له، ولم تظهر المدفعية على مسرح الحوادث بعد ذلك فيما يبدو حتى حل عهد الشاه سلطان حسين (١١٠٥ - ١١٣٥ هـ = ١٦٦٤ - ١٧٢٢؛ انظر تذكرة الملوك: ص ٣٣). وفي وقعة گلنآباد ضد الأفغان (٨ من مارس ١٧٢٢) كان لدى الفرس ٢٤ مدفعاً تحت إمرة توپچي باشي أحمد خان، وإشراف رئيس المدفعية الفرنسي فيليپ كولومب *Philippe Colombe*، واجتاح الأفغانيون المدفعية في تقدمهم، ولقي توپچي باشي وفيليپ كولومب مصرعهما في المعركة (المصدر المذكور، ص ١٤٢). وليس من المبالغة أن نذكر أن الصفويين لم يستخدموا مدفعيتهم في الميدان أي استخدام مجد قط.

[ساڤوري *R.M. Savory*]

٦ - الهِنْد

استعمل المسلمون في الهند سائل النفط (*Naphta*)، استعمله محمد بن القاسم ضد راجا داهِر عام ٩٣ هـ (٧١١ م). وكانت «تير آتشين» أي السهام المشتعلة هي أبسط ما استعمله الحكام المسلمون الهنود من مقذوفات نارية في أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ووضعت إدارة «آتش بازي» تحت رياسة «ميرآتش». والقول الذي يقول به فرشته من أن السلطان محموداً الغزنوي استعمل المدفع (توپ) والبندقية (تفنگ) ضد أناندپال قرب پشاور سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٨) ليس مفارقة واضحة، ومن الجائز مع ذلك أن فرشته كان يعني بقوله هذا استعمال السلطان محمود للقذيفة التي تحمل النفط (قارورة نفط) وهي سلاح ذكره فرشته في موضع آخر عند كلامه عن غزوة للسلطان محمود قان في الهند.. وملح البارود عنصر في تركيب البارود شائع الوجود في الهند. وتحتاج عبارة «كُشْك

أنجير » التي ذكرت في المخطوطين اللذين ينتميان إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وهما في « آداب الملوك » (ورقة ١١٨ ب) و « تاج المآثر » (ورقة ٣ ا) إلى تمحيص دقيق. ويفسر هذه العبارة « فرهنگ شرفنامه أحمد منيارى » (صنف سنة ٨٧٥ هـ = ١٤٨٠ م) بقوله إنها « خرّامة، أو آلة لرمي الحجارة، أو جُلَّة (كرة) تندفع بقوة تمدد مواد متفجرة ». ويفسرها ستاينگاس ***Steingass*** بقوله إنها مدفع أو كرة مدفع، أما كتاب « باهار عجم » فهي عنده آلة حرب تعمل بالبارود. وقد يبدو من ذلك أن آلة تقذف كرات بقوة مواد متفجرة قد استعملت في الهند قبيل سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠). ولا يمكن أن يؤخذ مما ذكره كل من برني وأمير خسرو أن لفظ « سنگ مغربي » أي حجر المغرب، المستعمل أيام علاء الدين الخلجي (٦٩٥ - ٧١٥ هـ = ١٢٩٦ - ١٣١٦ م) معناه المدفع، فهذه الآلة الجديدة مستعارة من أسبانيا وشمالي إفريقية، وهي بلاد يسميها العرب في لغتهم

« المغرب »، ويستعملها المحاصرون بوجه عام في دك الحصون. ولم يذكر في وضوح كيفية قذف الحجارة، ولكن الشيء المؤكد أنها كانت تنطلق بالقوة المتولدة عن البارود.

ومن العسير كل العسر أن نكشف عن الطبيعة الحقة للأسلحة النارية التي استعملت في الهند في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أو في مستهل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). فالمصطلح آتش بازي (الصواريخ) يحتمل تأويلين: ألعاب النار والمدفعية، وهذا ما يسبب الالتباس في فهم الفقرات التي ورد فيها. ومع هذا، فقد ذكر أن « توپ » و « تفنگ » كانا كثيري الاستعمال منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). وعندما قام السلطان محمود لحرب تيمور عند دلهي عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٨)، كانت فيلة السلطان تحمل هوادج بها « رعد أنداز » أي قاذفات القنابل اليدوية، والـ « تخش أنداز » أي قاذفات

الصواريخ. وتحسنت المدفعية أيام أسرة لودى (٨٥٥ - ٩٣٢ هـ / ١٤٥١ - ١٥٢٦ م)، فقد استخدم إبراهيم لودى التوپ (المدفع) والضربزان (الهاون) في قتاله بابُر في وقعة پانيپت، سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦).

وأصبح استعمال المدفع شائعاً جداً في الدكن منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ومستهل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). والسبب الأول في ذلك هو اتصال ولايات الدكن من جهة البحر ببلاد العرب وإيران وتركية، ومن هذه البلاد كانوا يحصلون على المدافع والمهندسين. ويسجل فِرِشته أن السلطان محمود شاه بهمنى أقام مصنعاً للأسلحة النارية عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) وكان أول من فعل ذلك من حكام الدكن المسلمين. وأغرق السلطان محمود بايقرا بمدافعه، وبمساعدة رجال مدفعيته الأتراك، سفينة برتغالية كبيرة تجاه «ديو» في سنة ٩١٥ هـ

(١٥٠٩ م). وبزَّ بهادرشاه، صاحب گجرات، معاصريه في المدفعية. وصب له رئيس مدفعيته «رومي خان» الكثير من المدافع. وكان من أسباب انتصار بهادُر على البرتغاليين تفوقه في المدفعية، ويتضح من كل هذه الحقائق أن المدافع استعملت في الهند قبل أن يستعملها بابُر عند پانيپت سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) بزمن طويل.

ووجه المغل كثيراً من اهتمامهم نحو فن المدافع، وكان لدى بابُر عدد محدود من المدافع الثقيلة عند پانيپت، وهو قد استعمل الألفاظ «دغ» و «فِرنگي» و «ضربزان» ولكنه لم يبين أعدادها. وقد جرى على «ربط مدافعه بعضها إلى بعض بجلود الثيران المجدولة على طريقة الروم». وكان مدفع بابُر يستطيع أن يطلق ما بين ٨ ـ ١٦ طلقة في اليوم فقط، وكان مدى قذيفته بعد تحسينه ١٦٠٠ ستريك *Striks*. وشاع استعمال الصواريخ في الهند بعد عام ٩٤٧ هـ (١٥٤٠). وكانت بنادق أكبر (٩٦٣ ـ

١٠١٤ هـ = ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥) ذات الزنـــاد على نوعين: نوع طول ماسورته ٦٦ بوصة وآخر طولها ٤١ بوصة، وكانت تصنع من طرائق من الصلب يلف طرفاها ويلحم أحدهما بالآخر. ولا يمكن أن يستعمل أطول السلاحين إلا رجل واقف على قدميه. وكان ديك الصوانة غير معروف كثيراً عند المغل. وكانت المدافع أعظم إتقاناً وأكثر عـدداً أيـام أوْرنگـزب (١٠٦٨ ـ ١١١٨ هـ / ١٦٥٨ ـ ١٧٠٧). وهو الذي استخـدم الأتـراك والعـرب والبرتغـاليين والهولنديين، علاوة على الهنود. وكان عنده مهنـدس مدفعية هولندي، بقي في خدمته ست عشرة سنة ثم عاد إلى وطنه سنة ١٠٧٧ هـ (١٦٦٧).

واستعمل كل من المغـل وأهـل الدكـن المدافـع الثقيلة، فقد صنع مدفع « هَفْت گازي » في بيدار سنة ٩٧٧ هـ (١٥٧٠ م). وكان طوله ٣١ قدماً. وصنـع مـدفـع « مَلِـك مَيْـدان » سنـة ٩٥٧ هـ (١٥٤٩)، أمر بصنعه برهان نظام شاه من سبيكة

من ٨٠,٤٢٧ جزءاً من النحاس و ١٩,٥٣ جزءاً من القصدير، ويزن ٤٠٠ موند (وزن من الذهب في الهند يختلف مقداره باختلاف المواطن). وكانت فوهته من السعة بحيث يجلس فيها الرجل ويتحرك في كل ناحية بسهولة. وتزن قذيفته من الحديد عشرة موندات (العيار الأكبري)، وكان مدفع «قلعة ـ كشا» الذي استعمله دارا سنة ١٠٦٨ هـ (١٦٥٨ م) في «سامگره» مصنوعاً من ٨٠٪ من القصدير، وطوله ٢٥ قدماً. وحدث أثناء النزاع على العرش بين أبناء بهادُر شاه، سنة ١١٠٣ هـ (١٧١٢)، أن نقلت ثلاثة مدافع كبيرة من قلعة لاهور، وكان يجر كل مدفع ٢٥٠ ثوراً يساندها خمسة أو ستة أفيال. ومع ذلك فقد اقتضى وصولها إلى المعسكر عشرة أيام مسافة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة أميال.

وكانت «توپخانه زره» أو «توبخانه جمبشى» مدافع خفيفة أو متحركة. وكان «الگجنال» أو «الهثنال» يطلق من فوق ظهور الفيلة. «وشُتَرنال» و

« شاهين » اسمان لسلاح واحد ، وهو مدفع صغير متحرك ، وكان « الزَمبورك » كما يذكر بَرَني ، « مدفعاً صغيراً للميدان في حجم بندقية مزدوجة » يرمي بكرات زنة رطلين أو ثلاثة أرطال. وكانت الـ « ذماكَه » والـ « زهقاله » مدفعي ميدان خفيفين. وكان لمدفع « الأرغون » ست وثلاثون ماسورة متجمعة بحيث تنطلق قذائفها معاً في وقت واحد. أما الغدارات ذوات الخزن الأربع فلم يستعملها غير النبلاء دون سواهم.

[يار محمد خان Yar Mohammad Khan]